مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 28 عدد: 3 (رت 77) السنة: 2024

تجليات النكبة والمنفى في رواية الشتات الفلسطيني

Manifestations of the Nakba and exile in the narrative of the Palestinian diaspora

د. وردة سلطاني[1]
جامعة باتنة1 الجزائر
Ouarda.soltani@univ-batna.dz

تاريخ الوصول 2024/02/28 القبول 15/05/ 2024 النشر على الخط 2024/06/01
Received 28/02/2024 Accepted 15/05/2024 Published online 01/06/2024

ملخص:

ولد الأدب الفلسطيني ونشأ في أحضان الحروب والنكبات، وتعد نكبة الاحتلال الإسرائيلي أقسى تجربة يتعرض لها الفلسطيني، هذه التجربة أثرت في أجيال من الأدباء الذين هُجروا من أوطانهم قسرا يعيشون المنفى بكل آلامه. أدبيات النكبة والمنفى تتداخل تداخلا كبيرا مع أدبيات الهوية، فالمنفى هو ما يؤجج الحنين إلى الأوطان، وهو ما يجعل الشخص المنفي المشتت بين عالمين يبحث عن ذاته وهويته، اخترنا لهذا الطرح موضوعا يتأسس على النكبة وما انجر عليها من تداعيات في الرواية الفلسطينية وغيرها، والذي يجيب على السؤال الآتي: ما هي تجليات النكبة والمنفى في رواية الشتات الفلسطيني؟ من سمات هذا الأدب أنه يتميز بتشتت الهوية والفقد والحنين إلى الوطن الذي يصبح فيه حلم العودة هاجسا.

الكلمات المفتاحية: الأدب الفلسطيني، النكبة، المنفى،الهوية، العودة.

Abstract :

Palestinian literature was born and grew up in the embrace of wars and catastrophes, and the catastrophe of the Israeli occupation is the harshest experience that a Palestinian is exposed to. This experience affected generations of writers who were forcibly displaced from their homelands and live in exile with all its pain. The literature of the Nakba and exile greatly overlaps with the literature of identity. Exile is what fuels longing for homelands, which is what makes the exiled person torn between two worlds search for himself and his identity. We chose for this proposal a topic based on the Nakba and its repercussions in the Palestinian novel and elsewhere, which It answers the following question: What is it? Manifestations of the Nakba and exile in the narrative of the Palestinian diaspora? One of the characteristics of this literature is that it is characterized by identity fragmentation, loss, and homesickness, in which the dream of return becomes an obsession.
Keywords: Palestinian literature, the Nakba, exile, identity, return.

[1] المؤلّف المراسل: وردة سلطاني البريد الإلكتروني: **Ouarda.soltani@univ-batna.dz**

1. مقدمة:

يعد الأدب الفلسطيني من أكثر الآداب التي ولدت ونشأت في أحضان الحروب والنكبات، ثم تطور واشتد عوده داخل المنفى والشتات، أدب فرض عليه العيش مسيجا بالمنفى داخل الوطن وخارجه، والأديب والمثقف الفلسطيني إما منفي داخل وطنه، أو مبعد قسرا في أوطان أخرى يعيش الشتات بكل تناقضاته، يسعى جاهدا لإثبات ذاته والحفاظ على هويته.

يقدم المنجز الروائي الفلسطيني الحديث الذي يعيش كل هذه التناقضات إنتاجا يتسم بسمة الهوية والمنفى خاصة الرواية باعتبارها الجنس الأدبي الوحيد الأقدر على تشريح الواقع ونقل كل تناقضاته ومعاناة الناس، هذا من ضمن الأسباب التي جعلتنا نختار الموضوع خاصة وأن الشعب الفلسطيني الآن يتعرض لهجمة شرسة من طرف الاحتلال الصهيوني وأعوانه.

تحيلنا هذه المشكلة التي حددنا لها العنوان الآتي: " تجليات النكبة والمنفى في رواية الشتات الفلسطيني" إلى طرح الإشكالية التالية: كيف تجلت النكبة وتداعياتها في الرواية الفلسطينية داخل الشتات ؟ ما الهوية والمنفى ؟ وكيف تجليا في الرواية؟ ما هي سمات الرواية الفلسطينية داخل الشتات ؟ تهدف الورقة البحثية إلى الغوص في أعماق الرواية الفلسطينية في الشتات لمعرفة سماتها، وذلك من خلال مجموعة من النصوص لكتاب فلسطينيين وغير فلسطينيين.

وترتيبا على ما سبق سيقدم البحث في النسق التصوري الآتي:1-مقدمة.2-مفهوم الهوية والمنفى.-الرواية الفلسطينية النكبة والشتات.1/3-تجليات النكبة والشتات في روايتي: "البرتقال الحزين" لغسان كنفاني، و"باب الشمس" للكتب اللبناني إلياس خوري.2/3-المنفى والعودة في رواية "رأيت رام الله" لمريد البرغوثي.3/3- البحث عن الهوية في رواية" البحث عن وليد مسعود" ل جبرا إبراهيم جبرا.4-خاتمة .

2. مفهوم الهوية والمنفى:

1.2 مفهوم الهوية:

الهوية(بضم الهاء) "حقيقة الشيء، أو الشخص في تميزه عن غيره"[1]وهو يعني الأصل والجوهر الذي يرتبط بصفة من الصفات الشخصية للفرد فيميز الشخص عن غيره؛ فهو مجموعة من السمات والخصائص التي يحملها الشخص بها يصبح مختلفا عن الآخر. والهوية(بفتح الهاء) تحمل اسم الشخص وجنسه ومولده وعمله ويطلق عليها البطاقة الشخصية، تحمل بيانات الشخص في محيطه وأمام الجهات الرسمية. هذه تدل على كينونة الشخص وليس على حقيقته؛ لأنها متغيرة "فكل هوية للأشياء مؤقتة وانتقالية، بينما تطورها وتغيرها مطلقان"[2]

وفي الاصطلاح المنطقي؛" أن مبدأ الهوية في المنطق نفيا للتناقض، أي أن الشيء في ذاته لا يناقض ذاته"[3]

وفي الاصطلاح الفلسفي" ماهية الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتا، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية "[1].

---

[1]- شوقي ضيف ،وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مجمع اللغة العربية،ط1،2004، ص988.

[2]- روزنتال بودين، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،ص556.

[3]- محمد الكتاني، موسوعة المصطلح في التراث العربي، ج3، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص2974.

وفي الاصطلاح الصوفي؛ "الهوية بمعناها الوجودي تعني ذات الحق سبحانه وتعالى وهو مذهب الصوفية"[2] الهوية مصطلح تتجاذبه اتجاهات متعددة نفسية اجتماعية فلسفية صوفية ثقافية ومن هذا المنظور تكون الهوية نتيجة هذه السيرورات التي تعمل على تشكيلها.

ويعرفها علي حرب بأنها "صيغة مركبة وملتبسة، بقدر ما هي سوية مبنية على التعدد والتعارض، وهي عقدة من الميول والأهواء بقدر ما هي شبكة من الروابط والعلاقات، وهي توليفة من العقائد والمحرمات بقدر ماهي سيرورة نامية ومتحركة من التحولات والتقلبات"[3]الهوية مكون وخليط من أشاء كثيرة؛ نفسية ودينية ثقافية اجتماعية فهي خليط من كل هذه الأشياء وليست شيئا جامدا، بل تتطور وفقا لمنطقها الذي يتمثل في التقمص والاصطفاء والإحساس بالهوية خليط من "المشاعر المادية، ومركب من مشاعر الانتماء، والتكامل والإحساس بالاستمرارية الزمنية، والتنوع، والقيم والاستقلال، والثقة بالنفس، والإحساس بالوجود "[4]فالهوية هي هذا الانتماء المتكامل المادي والمعنوي، النفسي الداخلي، والخارجي بكل توجهاته.

2.2 مفهوم المنفى

أدب المنفى ليس جنسا أدبيا قائما بذاته بقدر ما هو أدب يتميز بسمة تنبني على موضوعة عامة وسمة عامة هي "النفي" مثله مثل أدب الحرب، أدب المقاومة، أدب الرحلة أدب السجون....الخ[5]وعليه فهو يحوي جميع الأجناس الأدبية النثرية والشعرية ويتجاوز ذلك إلى أدب الصورة كالسينما وبقية أشكال التعبير. أدب المنفى ومنه كتابة المنفى ليس وليد العصر الحديث، عصر الاستعمار والهيمنة والامبريالية الأوربية الأمريكية، حيث أصبح هذا الأدب سمة العصر بامتياز لعبوره الحدود ذلك أن "المنفي ليس أول الشخص الذي يعبر الحدود الجغرافية فحسب، بل هو عابر للحدود الفكرية والثقافية، واللغوية وهو المؤهل لكي ينفتح على الإرث الإنساني بكل ثرائه وتنوعه واختلافه"[6].

أدبيات المنفى هي تلك الأدبيات المسيجة بالفقد والحنين والانكسار والغربة، هي أدبيات رأت النور في غير منبتها في لحظات الانشطار عن الذات والوطن والتاريخ. فتجربة المنفى عاشت مرتحلة مع الرحلة حيث يتوحد فيها الانكسار والواقع والذات، يمثل فيها النفي على مستوى القول والفعل المحور الأساس، ويعتبر الحافز الذي يدفع إلى تشكل هذا الأدب دون أن يكون في خدمة الجوانب الجمالية والإنسانية حسب ادوارد سعيد "إن أقصى ما هنالك أن يجسد أدب المنفى ذلك القلق، وتلك الورطة التي نادرا ما يختبرهما معظم الناس على نحو مباشر، غير أن التفكير بان المنفى هو الذي يملي هذا الأدب بوصفه أدبا إنسانويا محسنا هو بمثابة ابتذال لما يحدثه المنفى من البتر وضروب التشويه"[7].

---

[1]- المرجع السابق، ص2974.

[2]- المرجع نفسه، ص2975.

[3]- علي حرب، خطاب الهوية ، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط2، 2008، ص201-202.

[4]-اليكس ميكشيلي، الهوية، ترك علي وطفة، دار النشر الفرنسية، presses universitaires de France ص129..

[5]. فريال غزول، الكتابة والمنفى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص 42.

[6]. لونيس من على، ادوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص 244.

[7]. ادوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، دار الآداب، بيروت، تر: ثائر ديب، ط2، 2007، ص 118.

إن خطاب أدبيات المنفى وجد منذ وجد المنفى والمنفيون عبر التاريخ. المنفَى(بالفتحة) وهو يشكل المنفِي(بالكسرة) بكل هذه التناقضات ينتج ضربا من الكتابة "هي كتابة المنفى وفي اللب؛ منها أدب المنفى ومادتها مزيج من الاغتراب والنفور؛ لأنها تراوح في منطقة الانتماء المزدوج إلى هويتين متباينتين، ثم في الوقت نفسه عدم إمكانية الانتماء لأي منهما"[1].

يكشف هذا النمط من الكتابة عن الهوية المنشطرة إلى هويات متعددة حد التناقض؛ أو على الأقل هويتين متصارعتين تبرز هوية ثالثة بينهما وهي ما تعرف بالهوية الرمادية، أي دون انتماء إلى الوطن الأم، ولا إلى الوطن البديل وهو ما نجده عند ادوارد سعيد يقبع في الطباقية.[2] كتابة المنفى حسب عبد الله إبراهيم "عابرة الحدود الثقافية والجغرافية والتاريخية والدينية وهي تخفي في طياتها إشكالية خلافية"[3] فهي جامعة لمختلف أشكال تداخل الثقافة الفلسطينية وثقافة الأوطان الأخرى لتشكل هويات منشطرة تتكرر بشكل متواصل ضمن روايات الشتات.[4]

3 . الرواية الفلسطينية النكبة والشتات

كان لنكبة 1948 أثر بالغ الأهمية على الشعب الفلسطيني وعلى الأدباء خاصة الذين كرسوا أقلامهم للدفاع عن وطنهم المسلوب، ومع النكبة ظهرت الرواية الفلسطينية الواعية الملتزمة بقضية الوطن المسلوب التي انبرت لاستعادة فلسطين عبر السرد، فبدأت ترسم ملامح المجتمع الفلسطيني في العهد العثماني وما تلاه من الانتداب ثم النكبة ومن الروايات التي تناولت ملامح المجتمع الفلسطيني رواية "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصر الله ورواية حسن حميد" أنين القصب" وغيرها من الروايات التي تناولت المرحلة حيث رسمت ملامح الحياة الفلسطينية والاحتلال الذي اعتراها بعد الانتداب إلى النكبة ثم التهجير، "وهي سردية مضادة للرواية الصهيونية التاريخية والتخييلية حول الوجود الفلسطيني"[5]

والملاحظ أن أحداث النكبة أثرت في الروائيين الفلسطينيين ما حفزهم للكتابة عن الأوضاع المأساوية، وكانت الموضوعات التي تناولها الكتاب تحمل سمة الأرض وما يدل عليها، لأن الأرض هي محور الصراع، كما وثقت حالة التهجير التي عاشها الفلسطينيون، وقد ظهرت روايات كثيرة توثق ما حدث بعد النكبة مثل رواية "فتاة من فلسطين" عام1948 لـ عبد الحليم عباس ، و" الشهيد" عام 1950 لعباس راضي، و" اللهب" عام 1954لمحمد العناني، وتمثل روايتي؛ "رجال في الشمس" و" ما تبقى لكم" عام1963 لـ غسان كنفاني[6] اللتين تؤسسان لأدب المنفى والشتات الذي يعد حافزا لتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية، كون معظم الكتاب عاشوا المنفى والشتات.

---

[1]. عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص 8.

[2]. مصطلح لادوارد سعيد، القراءة الطباقية في مشروع ادوارد سعيد مأخوذ من الطباق.

[3]. عبد الله إبراهيم، المرجع نفسه، ص 9.

[5]. فخري صالح، موقع https://aljadeedmagazine.com/ النكبة-والرواية-وتبلور-الهوية-الوطنية-الفلسطينية الاربعاء.2020/01/01.

[6]. ينظر، المرجع نفسه

وتعد الفترة ما بين 1948-1967 مرحلة تأسيسية للرواية الفلسطينية، وهي مرحلة بدأ يتكون فيها الوعي الفلسطيني بالقضية والهوية الفلسطينية.

أما الرواية الفلسطينية بعد النكسة 1967 تبدو أكثر وعيا وعمقا وإدراكا للقضية الفلسطينية" وقد ربط أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ... ربطا محكما بين المسألة الاجتماعية والمسألة السياسية، واعتبرهما طرفين من صيغة لابد من تلاحمهما لتقوم بمهمة المقاومة"[1] ومعظم روايات النكبة صورت مشهد الخروج التراجيدي من فلسطين إلى أرض الشتات في الدول المجاورة راسمة تشتت الأسر والمجتمع الفلسطيني، وتصوير حياة البؤس والملاجئ ، وهذا ما تصوره روايات كل من جبرا إبراهيم جبرا ، ويحي يخلف ، مريد البرغوثي، وغسان كنفاني، وسوزان أبو الهوى. إلا أن ما يميز روايات المرحلة الثانية؛ وهي روايات المنفى والشتات أنها" تفتح المشهد على أمل العودة والمقاومة؛ لأنها في معظمها مكتوبة انطلاقا من رؤية إيديولوجية مقاومة وفي زمن ينتمي بصورة عامة إلى ولادة المشروع الوطني؛ أي زمن ولادة الهوية الفلسطينية المعاصرة"[2] فروايات مثل عائد إلى حيفا ورجال في الشمس لـ غسان كنفاني، والبحث عن وليد مسعود لـ جبرا إبراهيم جبرا كلها تسير في اتجاه واحد وهو الارتباط بالأرض والتمسك بالهوية والعودة والمقاومة. تغلفها مسحة من الحزن والمعاناة في الشتات وهنا تبرز قضية الهوية الفلسطينية المشتتة .

لم تقتصر القضية الفلسطينية على الكتاب الفلسطينيين ،بل نجد لها صدى في كتابات الكتاب في الوطن العربي منها على سبيل المثال لا الحصر رواية التنطورية لرضوى عاشور، باب الشمس، ومملكة الغرباء لـ الياس خوري.

1.3. تجليات النكبة والشتات في روايتي: "البرتقال الحزين" لغسان كنفاني، و"باب الشمس" للكاتب اللبناني إلياس خوري:

تبرز النكبة كموضوعة مهيمنة على الرواية الفلسطينية منذ تأسيسها مع الرواد الأوائل الذين عاشوا لحظاتها المرة من التهجير والشتات وبما أن الموضوع هو بؤرة الأزمة ترك آثارا غائرة في الأدبيات الفلسطينية منذ الوهلة الأولى خاصة عند الكتاب الرواد الذين عاشوا النكبة وهم صغار وترجموها في أعمالهم الأدبية ومن هؤلاء غسان كنفاني في قصة "البرتقال الحزين" تتناول نكبة 1948 وكيف هجروا من مدينة عكا ذات صباح توقفت سيارة شحن أمام منزلهم قذفوا فيها أمتعتهم ثم ركبوا ، انطلقت السيارة بهم إلى لبنان وعندما وصلوا صيدا وجدوا أنفسهم لاجئين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء يصف الليلة الأولى في اللجوء بقوله: "إن الليل شيء مخيف ...والعتمة التي كانت تهبط شيئا فشيئا فوق رؤوسنا، كانت تلقي في الرعب.. مجرد أن أفكر في أنني سأقضي الليل على الرصيف كان ينشر في المخاوف"[3] .

يؤسس هذا القول أول صورة ذهنية للحظات التهجير القسري للعائلات الفلسطينية تحت طلقات السلاح الإسرائيلي، وأجبر المقاومون الفلسطينيون على تسليم أسلحتهم ومغادرة البلاد دون رجعة تاركين خلفهم كل أحلامهم في امتلاك وطن.

---

[1]. غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (1968/1948)،مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1968، ص32.

[2]. ينظر فخري صلح، مرجع سابق

[3] -غسان كنفاني ، ارض البرتقال الحزين،مؤسسة غسان كنفاني الثقافية،بيروت،ط4 ،1987،ص76.

وقد أبدع الكاتب اللبناني إلياس خوري في تصوير النكبة الفلسطينية في روايته" باب الشمس" فقد صور جوانبها السياسية والاجتماعية والإنسانية، يركز الكاتب على تداعيات النكبة على المهجرين ، إذ يجعل الرواية ترتكز على مجموعة من الحكايات تنتظم في حكاية واحدة عن طريق نظام التضمين والحكاية الأساسية المركزية هي حكاية يونس الأسدي هُجر مع أهل قرية عين الزيتون التي نسفها الاحتلال من فوق الأرض انتقل يونس إلى دير الأسد، ثم رحل إلى لبنان تاركا زوجته التي يحبها وراءه لكنه كان يتسلل مع المهجرين عبر الجبال عائدين إلى أهاليهم وما تبقى من قراهم ،كان يتردد على المكان إلى أن بنى بيده قرية في الصخور في أحد الجبال المحاذية للحدود اللبنانية سماها باب الشمس؛ لان هذه المغارة تدخلها الشمس كان يتردد على زوجته التي أنجبت له أطفالا كثيرين لم يكف عن مقاومة الاحتلال ومقارعته فقد شهد جميع الحروب حتى الاجتياح الإسرائيلي على مخيمي صبرا وشتيلا أين كان يسكن مع والدته ، وينتهي به المطاف فاقدا للوعي لمدة طويلة في المستشفى في حالة الموت السريري.

ليس غريبا إذ تتضمن حكاية يونس الأسدي داخلها حكايات كثيرة يرويها الراوي، منها حكاية الراوي الدكتور خليل، الذي فقد أباه في فلسطين وأمه أصيبت بالجنون ورحلت إلى الأردن ولم يرها قط. تبناه يونس الأسدي ووالدته أم حسن وهو من يقوم على علاجه في المستشفى، يحكي حكاية يونس وحكايته وحكايات أم حسن، وعدنان، وأبو عبيدة، ودنيا. وهي حكايات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان التي لا تخلو من المآسي ، يركز الراوي على المآسي الاجتماعية من الفقر والعوز بالإضافة إلى عدم الاستقرار النفسي نتيجة التهجير والنفي خارج الوطن، أو عدم الاستقرار نتيجة المقاومة أو الحرب الأهلية اللبنانية، أو الاجتياحات الإسرائيلية مثل مجازر صبرا وشتيلا موطن شخصيات الرواية الذين ينتهي بهم المطاف بالموت أو القتل أو الاغتيال ومن نجا منهم فهو معطوب حرب مثل الراوي الدكتور خليل الذي أصيب في عموده الفقري فأصبح عاجزا على المقاومة.

شخصيات الرواية كثيرة يجمعها الحب تنتظم تحت فكرة واحدة هي حب الوطن كما تنتظم حكايات الرواية تحت حكاية واحدة وهي حكاية يونس الأسدي الذي هو رمز للوطن بَنى قرية في الحقيقة هي مغارة حفرها بيده واسماها قرية دلالة على رمزية الوطن، اختار لها اسم باب الشمس وهو رمز آخر لهذا الوطن الواضحة أحقيته وضوح الشمس.

يتسع فضاء القرية الوطن عبر توغل رمزية الموت لتطال جميع الشخصيات الحاملة لدلالة المقاومة والتضحية لأجل الوطن وهي مقاومة طويلة الأمد تستغرق أجيالا ففي حرب 67 فرح الفلسطينيون وهم يعتقدون أن النصر قريب والعودة أقرب إلا أن أم حسن لم تفرح، بل حزنت ولبست الحداد وقالت: "إنها تعرف فلسطين لن تعود قبل أن نموت جميعا"[1] وهذا هو التصور العام لصورة العودة الذي وتبدو فيه إيديولوجيا الكاتب داخل النص السردي على اعتبار أن قضية فلسطين قضية عويصة وتحريرها يستغرق أجيالا.

2.3. المنفى والعودة في رواية "رأيت رام الله" لمريد البرغوثي :

هي رواية سيرة ذاتية تصور المأساة الداخلية للشخصية الساردة في المنفى تترجم أحاسيس القهر والألم في المنفى، متى أصبح غريبا وكيف؟ كان مريد في جامعة القاهرة طالبا وبعد حرب 67 مباشرة وجد نفسه عالقا في مصر لم يسمح للشباب –خاصة– دخول فلسطين، فهذا الموقف سبب له صدمة ، في لحظة وجد نفسه لاجئا ، دون وطن، غريبا منفيا يقول في تصويره أحاسيس الغربة :"

[1] – الياس خوري، باب الشمس، دار الآداب، بيروت، ط6 ، 2010، ص33

الغربة كالموت، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين، ومنذ ذلك الصيف أصبحتً ذلك الغريب الذي كنت أظنه سواي"[1] ويسترسل في الحديث عن الغربة والغريب وكيف تعامله الحكومات، فهو مسيج بالقوانين كتصريح الإقامة وملء النماذج وشراء الدمغات والطوابع وتقديم الإثباتات هذا في وقت السلم ، وفي الاضطرابات أول من تشار له أصابع الاتهام ، وهو الغريب على المستوى الاجتماعي ، أول من يُسأل عن بلده من أين جاء؟

تخلق هذه الظروف الاستثنائية صورة متميزة لحلم العودة الملتحمة بكل فلسطيني يعيش في الغربة والشتات، تمتزج العودة بمشاعر مختلطة عندما تصل الشخصية الساردة إلى المكان الذي يحول بينه وبين وطنه ثلاثين سنة وهو **الجسر** ، وحضوره في أي عمل أدبي يستدعي تيمة العودة التي يحلم بها كل فلسطيني .

يبدأ بعد ذلك مسارا آخر للعودة مرتبطا بالجسر رمزا للعبور إلى الضفة الأخرى حفلت به معظم الأعمال الأدبية التي تتحدث عن العودة نستحضر هنا قصيدة "الجسر" ل محمود درويش، ورواية حسين جميل البرغوثي الضفة الثالثة لنهر الأردن" .

تتناسل تيمة الجسر التي يستدعيها مريد البرغوثي في روايتين : " رأيت رام الله" و" ولدت هناك ولدت هنا" الجسر هو الرابط بين الضفتين يمثل العبور إلى الضفة الأخرى فلسطين المحتلة التي يحلم برؤيتها فهو غائب عنها ثلاثين سنة وها هو يقوم بزيارة إلى الأرض التي أنبتته يمتلئ قلبه شوقا وحنينا إلى رؤيتها تبدأ الرحلة من عمان بتوديع شقيقه الذي أوصله إلى الجانب الأردني من الجسر، ثم تبدأ رحلة الانتظار عند الجسر المتهرئ الضيق الذي يحمل في طياته أحلام الملايين من الفلسطينيين الذين يحلمون بالعبور إلى الضفة الأخرى" الجسر الذي لا يزيد طوله بضعة أمتار من الخشب ...كيف استطاعت هذه القطعة الخشبية الداكنة أن تقضي على أمة بأكملها" [2] وفي رحلة الانتظار إشارة العبور تختلط مشاعر السارد بين الأمل في العبور وبين مشاعر الخيبة ، حتى أنه لم يصدق نفسه في حال أعطوه إشارة العبور هل حقيقة سيسير فوق هذا الجسر يقول: "أتأمل جسم الجسر ، هل سأجتازه بالفعل؟... هل سأمشي بقدميَّ على الضفة الأخرى على هذه التلال المعلقة أمامي؟" [3] كذلك تساءل مريد . وأخيرا عبر إلى الضفة الأخرى لكنها ليست العودة، بل هي زيارة لم تدم.

تعد الرواية من أحسن الأعمال الأدبية ترجمة لمشاعر الغربة والنفي والشتات وقد لخص ادوارد سعيد قيمتها ومكانتها في قوله: "إن عظمة وقوة وطزاجة كتاب مريد البرغوثي تكمن في أنه يسجل بشكل دقيق موجع هذا المزيج العاطفي كاملا"[4]

3.3. البحث عن الهوية في رواية" البحث عن وليد مسعود" ل جبرا إبراهيم حبرا:

تبدأ أحداث الرواية من نهايتها كتقنية تناسب تيار الوعي تستهل الرواية باختفاء وليد مسعود دون سابق إنذار تاركا وراءه سيارته في مفترق الطرق بين الحدود السورية في الطريق الصحراوي ، ترك في سيارته مسجلا فيه أشياء كثيرة ولم يذكر الوجهة التي ذهب إليها، تاركا وراءه سيل من الأسئلة، ثم يبدأ أصدقاؤه البحث عنه، يجمع صديقه جواد حسني جميع أصدقائه

[1] – مريد البرغوثي،رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2011، ص. 7

[2] – مريد البرغوثي، المصدر نفسه، ص. 14

[3] – مريد البرغوثي، المصدر السابق، ص. 9

[4] – مريد البرغوثي،المصدر نفسه، ص ب

ومعارفه وتبدأ عملية البحث عن طريق استجواب كل واحد وواحدة ورد اسمه بالمسجل، وهنا تتعدد الشخصيات التي تسرد معرفتها بوليد مسعود من خلال وجهات نظرها المتعددة إلى أن نصل في النهاية إلى وصال التي تخبرهم بأنه عاد إلى فلسطين ليلتحق بالمقاومة.

نحاول أن نحلل الرواية من خلال العناصر الآتية:

- الاستهلال
- الهوية والمنفى(اضطراب الهوية وعدم وضوح الرؤية)
- الهوية والذاكرة (الوطن المتخيل، أو البحث عن الوطن)
- الهوية والوطن(التحقق من وجود الطريق إلى الوطن)

الاستهلال: عنوان الرواية يحمل إيديولوجيا الكاتب أو رؤية الكاتب، وفيها دلالة على البحث عن الوطن المسروق الذي سيولد من جديد بفضل فعل المقاومة التي ستقضى على الاحتلال الإسرائيلي المسئول عن النفي والفراق مصدر تشتت الهوية الفلسطينية- وهذا ما يرمز إليه اسم وليد- فيختفي الحزن من الوطن فيتحول وليد إلى شخص سعيد ومحظوظ بالعمل على تحرير فلسطين ولذلك اقترن اسمه بمسعود. فالبحث عن وليد مسعود هو البحث عن فلسطين وتجديد الوصال بالهوية الوطنية وهى دلالة اسم الفتاة التي أعلمتهم خبر العودة

.الهوية والمنفى (اضطراب الهوية وعدم وضوح الرؤية):

يعد جبرا إبراهيم جبرا من الكتاب المؤسسين للرواية الفلسطينية ، عاش النكبة والتهجير والمنفى، وليد من بيت لحم شهد النكبة عام 1948 كما كان شاهدا على التهجير القسري وسقوط المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى يقول الراوي الذي هو صوت الكاتب الضمني :"كان ذلك فيم أذكر سنة 1950 أو بعدها بسنة وبيت لحم قد تضخمت بآلاف الناس الذين لجأوا إليها غير أن الشباب هجروها كما كنت أشعر أنا ابن البلدة، ولم يبق فيها إلا الشيوخ والعجائز وعدد من الفتيات ..أما اللاجئون فيحتشدون في منازل البلدة القديمة أو في الأكواخ المقامة على التلال المحيطة بنا"[1] فكان هؤلاء اللاجئين منفيين في بلادهم إلى حين أصبحوا منفيين في البلدان المجاورة.

كما أن وليد مسعود اعتقل في بيت لحم وعذب، وطرد منها إلى الأردن ومنها عاد ثانية إلى بغداد، حيث عاش منفيا في بلدان عديدة منها؛ الأردن، والشام، وايطاليا، وبغداد التي استقر فيها، وهو كبقية الشخصيات المحيطة به تُلْقي تجربة النفي بظلالها عليهم أينما حلوا وارتحلوا" وعلى الرغم من قسوة تجربة النفي وضراوة وطأتها، فإنها تضفي الكثير من الخصائص المتضافرة ما بين السلب والإيجاب على رؤية المنفيين للعالم والإنسان والأشياء، فالمنفي ينظر إلى العالم أجمع باعتباره أرضا غريبة، ويكيف المنفى من شعور المنفي بأهميته الشخصية فتتضخم ذاته "[2] ويتحول كل ماضيه في وطنه الأصلي إلى ذكرى جميلة تستدعيها الظروف الحاضرة ، وكلما اشتدت وطأة المنفى كانت حافزا للبحث عن الهوية الأصلية.

---

[1]. جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود، مكتبة الشرق الأوسط، بغداد، ط3، 1985، ص14.

[2] – .محمد الشحات، مرويات المنفى، الرواية العربية بعد عام1967،دار أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006,ص22

المنفى فاعل رئيسي في الرواية يلقي بظلاله على جميع الشخصيات، وهي كثيرة ويؤثر فيها، فجميعها تعيش القلق والاغتراب والاضطراب، تدخل في علاقات مع وليد مسعود الشخصية المحورية، فعلاقة الرجال معه علاقة صداقة ، وعلاقة النساء معه علاقة محبة، وهي علاقات غير بريئة إذ جميعهن أقمن علاقات معه؛ مريم الصفار، وجنان، ووصال، وبقي وليد مسعود الشخصية المحورية التي تدور في فلكها جميع الشخصيات، فهو رمز لفلسطين التي أحبها الكل؛ لأنهم جميعا اقتلعوا من جذورهم، فالغياب المفاجئ لوليد مسعود الشخصية الحاضرة/الغائبة أحدث إرباكا ومفارقة. فهو حاضر في قلوبهم ، وهذا ما جعلهم جميعا يبحثون عنه، فهو مسؤولية الجميع بكل أطيافهم؛ لأن المنفى انتماء ولا انتماء، انتماء إلى ارض غير أرضهم وثقافة غير ثقافتهم وهذا ما يخلق الاضطراب وعدم الاستقرار لهوياتهم جميعا.

- **الهوية والذاكرة (الوطن المتخيل، أو البحث عن الوطن):**

طرحت الرواية قضية الانتماء و مشكلة الهوية ، كل شخصيات الرواية بما فيها وليد مسعود يقيمون علاقات هشة مع المكان الذي يعيشون فيه والهويات المضطربة هي العلامة أو السمة الدالة على هذه الشخصيات المحيطة بوليد مسعود تعيش الاغتراب وهذا نتيجة عدم استقرارها في محيطها ، فحياة الشتات تفرض على المنفي عدم الانتماء لأي مكان لذا نجد وليد مسعود كثير التنقل بين الأماكن، بين بيت لحم ، والقدس، وبيروت، والشام، وبغداد، وإيطاليا يلخص معاناة هذا الوضع بقوله:" مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب ، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد إلى بلد "[1]، اللانتماء يجعل الشخصيات تعيش وطأة المنفى والفقد، الأمر الذي يؤجج عندها الحنين إلى الأوطان، أو ما يعرف بالنوستالجيا، وهذا نتيجة المنفى مع الإحساس بالألم فتلجأ الشخصيات إلى تشييد أوطان متخيلة عبر الذاكرة وهي تقنية ترد في سرديات المنفى بصفة عامة " وقد لاحظ نقاد جبرا إبراهيم جبرا أنه يلجا إلى الذاكرة بإدمان شديد لدرجة أن معظم الشخصيات الروائية تنمو من خلال ذكرياتها، إذ تلعب الذاكرة الدور الأول في تشكيل هذه الشخصيات و نموها و تغذية الحدث و تعميقه "[2]

من أجل هذه التقنية تشيد رواية البحث عن وليد مسعود على معمارية التذكر منذ الوهلة الأولى تستهل بدايتها بمقولة وليد مسعود التي كان يرددها : " تمنيت لو أن للذاكرة إكسيرا يعيد إليها كل ما حدث في تسلسله الزمني ، واقعة واقعة و يجسدها ألفاظا تنهال على الورق...نحن ألعوبة ذكرياتنا مهما قاومنا خلاصتها و ضحاياها معا...كيف نمسك بهذه الأحلام المعكوسة، هذه الأحلام التي تجمد الماضي و تطلقه معا"[3] يسترسل في الحديث عن الذكريات و أهميتها في حياتنا صغارا كنا أم كبارا.

تشكلت الرواية في معمارية متميزة تبدأ من نقطة النهاية ثم تعود إلى الوراء. فينطلق الزمن من لحظة اختفاء وليد مسعود تاركا وراءه شريط مسجل دلالة وجوده أو اختفائه و هذا ما يفسح المجال لأصدقائه للبحث عنه أو فيه هذا البحث يعتمد على الحوارية أو تعدد الأصوات إذ كل شخصية تدلي برأيها وتحفر في ماضيه و علاقاته به متقصية اعترافاته ، مسفرة عن اعترافاتها له ،كما هو

---

[1] جبرا إبراهيم جبرا، الرواية،ص110.

[2] –مصطفى عبد الغاني ، الرواية وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية من نكبة إلى الانتفاضة. دار الجهاد للنشر و التوزيع،القاهر،ط1، 2003،ص44

[3] – الرواية ،ص11

الحال مع إبراهيم الحاج نوفل ، فتعدد الرواة و تعدد وجهات النظر التي تروي عنه أو ترويه أعطت الطابع البوليسي في عملية البحث عن وليد.

وعلاقات الشخصيات به من الرجال و النساء كلها تعتمد على الاسترجاع وتيار الوعي الذي يستخدم فيه الكاتب التداعي الحر و الهذيان خاصة في مغامراته النسائية [1]

تقوم إعادة بناء الخطابي لسرد المنفى على التذكر كشريط مسترسل عندما كان وليد مسعود يكتب سيرته يرحل بذاكرته إلى فلسطين إلى الوطن الأم، وهنا ينفصل عن الوطن البديل يحتضن بيت لحم حيث أمه و أبوه والمدينة بكل أطيافها و نكبتها يقول :"كان ذلك ، فيما أذكر سنة 1950 أو بعدها بسنة و بيت لحم قد تضخمت بآلاف الناس لجئوا إليها غير أن الشباب هجروها كما كنت اشعر أنا ابن البلدة لم يبق فيها إلا الشيوخ و العجائز وعدد من الفتيات .. أما اللاجئون فيحتشدون في منازل البلدة القديمة، أو في الأكواخ المقامة على التلال المحيطة بنا"[2] و الشريط التذكري هنا يهيمن عليه الراوي الذي هو المؤلف الضمني؛ لان الكاتب عاش ظروف النكبة والتهجير و لم يسمع عليها. ترحل به الذكرى إلى الوطن الأم و الأم الحقيقية فيحاول أن يمسك بتلابيب هذا الوطن الذي هو هوية حقيقية و ليس ذكرى يقول: "وفي تلك اللحظة لمحتني أمي فأسرعت إلي واحتضنتني بذراعيها الطليقة إلى جسمها الحار ، وسارت بي في اتجاه بيتنا"[3].

يرتكز هذا الشكل السردي على تبني تيار الوعي الذي يعتمد تقنية التكثيف اللغوي والدلالي فغدت كل الاسترجاعات رامزة ؛ وليد مسعود رمز للوطن، سيارة وليد التي تركها في الحدود بين/ بين رمز للفلسطيني الذي يعيش البينية والتهميش في جميع البلدان .

إن أساس التصور اللغوي عند الكاتب ينصب على توافق الفصول السردية الروائية خاصة مع المنفى والمنفيين " هناك علاقة جدلية بين تيمة (النفي) والبنية السردية التي تخلقها وتتخلق من خلالها في الوقت نفسه ملامح عالم المنفى الذي نرى العالم من منظوره، وندرك تفصيلات هذا العالم بشخوصه وفضاءاته غير حواسه الخاصة، فإن ثمة علاقة أخرى تجمع بين طرفي الحبكة والذاكرة"[4] سرديات المنفى تتغذى من الذاكرة التي هي الهوية الحقيقية للمنفى، تأتي كنوع من الهروب من الواقع، من الوطن البديل إلى الوطن الحقيقي ولو كان وطنا مشيدا من الخيال أو هو على حد قول ادوارد سعيد "الكتابة عندي فعل استذكار وهي إلى ذلك فعل نسيان"[5]

- **الهوية والوطن(التحقق من وجود الطريق إلى الوطن)**

تتشكل صورة الوطن فلسطين لغويا في رواية البحث عن وليد مسعود وتصبح ذاكرة خطابية آنية تصاحب السارد في رحلة البحث عن الوطن أو الهوية الوطنية الفلسطينية بامتياز وقد مر هذا البحث بثلاث مراحل تظهر الهوية الوطنية والوطن في

[1] – ينظر الرواية الصفحات 105-225.

[2] – الرواية ،ص91.

[3] – الرواية ،ص180.

[4] – محمد الشحات، سرديات المنفى ، مرجع سابق، ص26.

[5] – عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف والهوية المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ط1، 2011 ، ص28.

المرحلة الأولى لونا باهتا لم تتضح معالمه وهذا ما تمثله الشخصيات المشتتة عبر المكان المتمحورة على وليد مسعود الغائب الحاضر، لتنطق عملية البحث عنه وفيه عبر الذاكرة وهي الحفر في الجذور لمعرفة حقيقة وليد الذي لا ينتمي إلى الوطن البديل بغداد، بينما تتجلى الهوية في المرحلة الثانية عبر الذات الممتدة عبر الزمكان ليصل إلى فلسطين إلى بيت لحم إلى كل بلدة فلسطينية تقاوم، ومن هنا ينشأ حب كبير لوليد من طرف جميع الشخصيات المحيطة به التي تقتنع بالبحث عنه وإيجاده عبر البحث في جذوره.

أما المرحلة الأخيرة تتضح فيها أيدلوجيا الكاتب يحملها بطل الرواية فمشهد التهجير القسري والعيش في المنفى لم يكن مغلقا إلى الأبد، بل كان مفتوحا، إذ ينفتح مشهد الخروج على العودة ،وعدم استسلام وليد مسعود ،هذه الرؤية الايديولجية عند الكاتب تبلورت لديه "بعد ولادة الهوية الفلسطينية المعاصرة من خلال تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. والنكبة كما تتمرأى في السرد و الإبداع الفلسطيني عامة هي الوجه الآخر لولادة فلسطين أخرى"[1]

يؤسس محكي المنفى والعودة إلى الوطن صورة الرفض لشتات الهوية الذي يحتم على شخصيات الرواية التمرد والنضال لذلك لم تكن شخصيات خاضعة و ساكنة، بل هي شخصيات متحركة و متمردة وليد مسعود شخصية ديناميكية متمردة على واقعها في الوطن الأم و في الشتات. ففي فلسطين لم يستسلم للعدو، بل كان مع المقاومة حمل السلاح وحارب العدو الصهيوني ينقل لنا تجربته في المعركة "كان قرار الجبهة إن نقتحم أم العين، وذلك بتحرك مجموعات ثلاث ، الأولى لها جبهة من السفح الشمالي الشرقي للجبل، والثانية من السفح الشرقي حيث تبدأ غابات السنديان ،والثالثة من الناحية الجنوبية"[2]

وليد مسعود استبسل في ميدان المعارك وفقد فلذة كبده مروان الذي استشهد في المعركة. والقي القبض على وليد مسعود وعذب في السجن ونفي إلى بغداد حيث يصف لنا مشهد القبض عليه وتهجيره بقوله:"أعطوني أوراق بالعبرية قالوا إنها أمر بإبعادي ، دفعوا بي إلى سيارة عسكرية.."[3] ولكن وليد مسعود لم يستسلم في المنفى قرر العودة إلى فلسطين للمقاومة .

بهذه الصفات والسمات يستمر السارد في تقديم شريط فني ومكثف لبقية الشخصيات المتمردة على واقعها، فهي متمركزة حول وليد مسعود في ذات الوقت لكل منها صوتها الخاص بها لكن إيديولوجيته نفسها أيدلوجيتهم تبناها لتأثيث صور النكبة الفلسطينية التي اختارها لبناء عالمه التخيلي القائم على مقاربة استعارية لتيمة المنفى شكلت موضوع هذا النص الروائي لهذا كان أهلا أن ترتبط الهوية بالترميز الروائي للوطن فلسطين الذي يؤكد استمرار هويته غير المتناهية بتبني المقاومة وسيلة للقضاء على مشروع الشتات الذي فرضه الاحتلال.

---

[1] – فخري صالح ء2020/01/01النكبة–والرواية–وتبلور–الهوية–الوطنية–الفلسطيني.

https://aljadeedmagazine.com/

[2] – الرواية ص.297

[3] – الرواية ص.148.

4.. خاتمة:

تقدم رواية الشتات الفلسطيني تجربة خاصة وقيمة مضافة لسرديات المنفى داخل النصوص الروائية المدروسة عبر الاشتغال على مفهوم الهوية والمنفى بضبط المقولات السردية واللغوية في أبعادها الدلالية والتخيلية من ثمة تحصل النتائج الآتية :

- الهوية مكون وخليط من أشاء كثيرة؛ نفسية ودينية ثقافية اجتماعية خليط من كل هذه الأشياء وليست شيئا جامدا، بل تتطور وفقا لمنطقها الذي يتمثل في التقمص والاصطفاء والإحساس بالهوية خليط من المشاعر المادية والمعنوية.
- أدبيات المنفى هي تلك الأدبيات المسيجة بالفقد والحنين والانكسار والغربة، هي أدبيات رأت النور في غير منبتها في لحظات الانشطار عن الذات والوطن والتاريخ.
- أدبيات المنفى عاشت مرتحلة مع الرحلة والانكسار مع الواقع والذات، يمثل فيها النفي المحور الأساس، ويعتبر الحافز الذي يدفع إلى تشكل هذا الأدب دون أن يكون في خدمة الجوانب الجمالية والإنسانية.

المنفى يعد حافزا للهوية، وسرديات المنفى تتغذى من الذاكرة التي هي الهوية الحقيقية للمنفي ، تأتي كنوع من الهروب من الواقع، من الوطن البديل إلى الوطن الحقيقي.

-من سمات أدب الشتات الذي يرتكز على مشاعر المنفى ويتغذى على حلم العودة تصبح الأرض أهم محور فيه .

- المقاومة من أهم السمات التي يتميز بها الأدب الفلسطيني، فهو في معظمه أدب مقاوم وأدب منفى.

5. قائمة المراجع:

1. ادوارد سعيد، تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، دار الآداب، بيروت، تر: ثائر ديب، ط2، 2007.
2. اليكس ميكشيلي، الهوية، ترك علي وطفة،دار النشر الفرنسية، presses universitaires de France
3. الياس خوري، باب الشمس، دار الآداب، بيروت، ط6 ، 2010،
4. جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود، مكتبة الشرق الأوسط، بغداد، ط3، 1985.
5. روزنتال بودين،الموسوعة الفلسفية،تر: سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
6. عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف والهوية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ط1، 2011.
7. عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011.
8. علي حرب، خطاب الهوية ، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط2، 2008
9. غسان كنفاني ، ارض البرتقال الحزين،مؤسسة غسان كنفاني الثقافية،بيروت،ط4 ،1987

10. غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال(1948/1968)،مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1968
11. مريد البرغوثي،رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2011
12. – شوقي ضيف ،وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مجمع اللغة العربية،ط1 .2004.
13. فخري صالح، 2020/01/01 النكبة–والرواية–وتبلور–الهوية–الوطنية– الفلسطينية
https://aljadeedmagazine.com /
14. فريال غزول، الكتابة والمنفى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011.
15. .محمد الشحات، مرويات المنفى،الرواية العربية بعد عام1967، دار أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006.
16. محمد الكتاني، موسوعة المصطلح في التراث العربي، ج3، دار الثقافة، الدار البيضاء.
17. مصطفى عبد الغاني ، الرواية وتبلور الهوية الوطنية الفلسطينية من نكبة إلى الانتفاضة. دار الجهاد للنشر و التوزيع،القاهر،ط1، 2003.